# جدلية التفسير الأسطوري للتاريخ

**أ.م.د. حامد عبد الحمزة محمد علي(*)**

## مقدمة

قامت مشكلة الدراسة في بحثنا الموسوم: (جدلية التفسير الأسطوري للتاريخ) على تسليط الضوء على قراءة التفسير الأسطوري للتاريخ، وكذلك تمَّ الخوض في جدلية العلاقة بين الفلسفة والتاريخ في ضوء المتغيرات الجديدة التي حصلت في ميادين المعارف والعلوم، والتي أنتجت قراءة جديدة للتاريخ تميَّزت بالواقعية التحليلية والنقدية بعيدةً عن السَّرد التاريخي الحاصل في الكثير من الروايات التاريخية، ولم تظهر هذهِ القراءة الجديدة إلَّا بعد أنْ ساد الخطاب الخرافي في التاريخ نتيجةً لابتعاد المؤرِّخ عن الفيلسوف، وبعد الالتحاق بركاب المنهج العلمي الجديد ظهرت فلسفة التاريخ؛ لتضع الخطاب العقلاني في التاريخ بديلاً عن الخطاب الخرافي؛ ليتم إعادة قراءة التاريخ على وفق خطوات المنهج العلمي الجديد، ومن تلك القراءات الفلسفية للتاريخ قراءة الأسطورة والخرافة، واستخراج ملامح التاريخ منها بروح النقد والتفسير، مستوحياً من تلك الأساطير القديمة الحياة الدينيَّة والاجتماعية والسياسية، والتي مثَّلت مظاهر الحياة المختلفة للإنسان عِبرَ ملاحم شعرية جسَّدها شعرائها بألوانٍ مختلفة.

وجاء بحثنا هذا بمبحثين: كان عنوان المبحث الأول (جدلية الدرس الفلسفي في التاريخ)، وفيه درسنا أهمية وجود الرؤية الفلسفية في قراءة الحدث التاريخي، والتي تخلص المؤرِّخ من سردية الأحداث المتعاقبة تاريخياً، والتي تخلو من الواقعية العلمية، وفيه ذهبنا إلى اعتبار التاريخ علماً كباقي العلوم الأخرى من العلوم الطبيعية، وهذا تطلَّب منه إتباع منهج علمي جديد، جعل منهجه يلتحق بالرؤية الفلسفية ليبلور موقفاً جديداً من التاريخ. وفي المبحث الثاني الذي حمل عنوان: (التفسير الخرافي والأسطوري للتاريخ)، والذي درسنا فيه الأسطورة ودورها في تدوين مظاهر الحياة

(*) جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية. hamedaiail30@gmail.com

المختلفة، والتي حملت في ملاحمها الشعرية نمط الحياة البشرية وتصنيفاتها، وتوقفنا عند رأي أشهر الفلاسفة فيها، وسلَّطنا الضوء على قراءة أحداثها التاريخية قراءةً فلسفية، ومحاولة ربطها مع البدايات الأولى للفلسفة - مع طاليس الملطي Thales of Miletus (٦٢٤-٥٤٨ق.م.)، عِبرَ الربط العلمي للظواهر التعليلية والتي بحث عنها الفلاسفة، والتي مثَّلت سؤالهم الأول مع النَّمط السلوكي للآلهة، وتسمياتهم المشتقة من الظواهر الكونية، ليخرج فيلسوف التاريخ بقراءةٍ جديدة للتاريخ.

## المبحث الأول

## جدلية الدَّرس الفلسفي في التاريخ

تُعرَّف الفلسفة على أنَّها (حب الحكمة)، وهي تتكون من مقطعين (Sophiy) + (Philo)، وهي كلمة يونانية الأصل تكوَّنت من هذين المقطعين، وفي مدلولها العلمي العام تعني الاسترشاد بنظرةٍ صحيحة إلى العالم، تمثل بجمل لمفاهيم عن الحياة في أبعادها الشاملة أو ظواهرها وأحداثها. كُلّاً على حِدة كما تبدو من خلال نظرة واحدة أحياناً. وهكذا فإنَّ دراسة الفلسفة تُسهم إسهاماً حقيقياً في تنمية فكرة البحث وتوسيع آفاق دائرة العقل. وكلمة الفلسفة المنقولة من اللغة اليونانية دالَّة في معناها على (الحكمة)، والحكمة هي المعرفة بأسمى غاياتها. وهي كمال القوة النظرية في إدراك حقائق الموجودات وأحكامها على ما هي عليه، وغايته حصول الاعتقاد اليقيني بحالها. قال أرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ق.م.): (إنَّ المعرفة شجرة، جذورها الفلسفة، وفروعها العلوم المختلفة)[١].

فالفلسفة تعني التحليل لعمليات الفكر، وتُفصِّل ذلك، إنَّ العقل الذي يشتغل بالفلسفة لا يقتنع بمجرد التفكير السَّطحي، بل إنَّه يؤمن بضرورة البحث عن جواهر الأشياء، والسَّعي للبحث عن حقائقها على وفق نظرياتٍ علمية تتخذ من الأسلوب الفلسفي منهجاً لها[٢].

أمَّا الصورة المقابلة التي لا يخلو عرضها من فائدة في هذهِ المناسبة، هي دلالات دراسة التاريخ بصفتها بُعداً علمياً في حقول المعرفة كافَّة، ولقد أضحى التاريخ منذ أنْ دخلت الاعتبارات العلمية بأبعادها النظرية التجريبية جزءاً لا يتجزأ من هذا الحقل، أو ذاك في حقول المعرفة من ناحية، كما تجاوزت اهتمامات التاريخ الجوانب السياسية إلى مختلف جوانب الحياة الأخرى من ناحيةٍ أخرى، إنَّ الأبعاد العلمية لهذهِ الصورة يمكن فهمها من خلال التصور أنَّ تاريخ هذا العلم أو ذاك يمثل التراكم العمودي لحقائقهِ وقوانينهِ ونظرياته.. وقد لا تكون من مهمات العالم في هذا الحقل أو ذاك غير التعامل مع الحقائق العلمية الراهنة من دون أنْ يكون مضطراً إلى الالتفات طويلاً إلى الأزمنة القديمة ليتابع التطور التاريخي للمعرفة العلمية في حقل اختصاصهِ، إلَّا أنَّه شاء أم لم يشأ فإنَّ الحقائق العلمية القديمة المفتوحة والباقية تظل جزءاً من تاريخ العِلم. والتاريخ خزانة المعرفة، وباطِّراد الزمن تتزايد أهمية وضرورة تحقيقه ودراسته للوقوف على كنوز المعرفة، وحقائق علوم الأولين في سياق تطورها، وضمن البُعدين الزماني والمكاني، ومع تطور العلوم بشتَّى ميادينها أصبحت الحاجة ضروريةً لفهم التاريخ فهماً علمياً يتناسب مع النهضة العلمية التي يعيشها حاضرنا[٣].

التاريخ هو ما وقع للإنسان في الماضي، وما

دوَّنه الإنسان على ذلك الماضي الحافل بالوقائع[٤].

وبذلك يكون التاريخ دون شكٍّ هو حياة الشعوب، ومن ثمَّ فهو نبضٌ حي يتجدد بتجدُّد حياة المُجتمعات، وهو يشمل تفاعل الإنسان مع بيئتهِ، ممَّا يتضمَّن ذلك من عصارة فكرهِ ونتاج تجاربهِ وتناغمهِ مع ما حوله من ظواهر، وما يتجدَّد حوله من ظروفٍ وملابسات، ومع اكتمال العقل البشري، ونضوج الفكر الإنساني، بدأت النهضات الحقيقية التاريخية، حين وعى الإنسان وارتقى من مراحل جمع الطعام والبحث عنه، إلى مراحل إنتاج الطعام والاستقرار، وإقامة القرى والمدن وصولاً إلى قيام الدولة، ومن ثمَّ كان ظهور الحضارة البشرية. وعليه فالتاريخ سجل ناطق بالأحداث التي عاشها الإنسان منذ أنْ بدأ حياته على الأرض، وإذا كان التاريخ كلمة فهو يعني البداية؛ لأنَّ بداية كلِّ شيء عقلي كانت الكلمة، وبالكلمة المسجَّلة المدوَّنة بدأ تاريخ الإنسان، وقد قال المؤرِّخ صموئيل نوح كريمر Samuel Noah Kramer (١٨٩٧-١٩٩٠م): إنَّ التاريخ بدأ في سومر، وجعل ذلك عنواناً لكتابهِ History Begins at Sumer، والكتاب في تاريخ العراق القديم، واتفق معه المؤرِّخ الإنكليزي آرنولد توينبي Arnold Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥م)، إذ يقول: (المتخصِّص في تاريخ العراق القديم، وبالذات في التاريخ السومري، هو أحسن المتخصِّصين في التاريخ؛ ذلك أنَّه بإمكانهِ أنْ يمدنا بمعلوماتٍ عن بداية كلِّ شيء في تاريخ الإنسان، وعن الأصول والأوائل في كلِّ فنٍّ من الفنون، وهو بهذا يقدم إجابة مقنعة تُرضي الباحثين، وتُجيب عن سؤال الإنسان الدائم في بحثهِ عن الأوائل في تاريخ الحضارة)[٥].

ينقسم التاريخ إلى مراحل أو تقسيمات، تُسهِّل على الباحثين التخصُّص والدراسة، وتُنظِّم هذهِ التقسيمات التاريخ القديم الذي يشمل تاريخ ما قبل التاريخ والعصور التاريخية في الشرق، حيث يتضمَّن ذلك التقسيم تاريخ الشرق الأدنى القديم وتاريخ الشرق الأقصى القديم، وتدخل في هذا تخصيصات كثيرة منها تاريخ المصريات والتاريخ السومري والآشوريات والبابليين، فضلاً عن تاريخ الهند والصين وتاريخ إيران القديم، أمَّا في الغرب فيتضمَّن تاريخ اليونان القديم، تاريخ الرومان القديم، فضلاً عن دراسة اللغات القديمة والآثار القديمة. ويأتي بعد ذلك التاريخ الوسيط ويشتمل المرحلة المتوسطة في التاريخ في أوروبا والشرق الأدنى، ثمَّ التاريخ الإسلامي الذي يتبعه التاريخ الحديث والمعاصر، هذهِ التقسيمات على كلِّ حال تقسيماتٍ نظرية تقبل التعديل والإضافة، وذلك بالرغم من استقرارها بين الباحثين والمشتغلين بالتاريخ[٦].

«لقد كانت الفلسفة وستبقى هي التي تقود الأفكار، وتُرشدنا إلى ما فيه الصواب أو الخطأ في مسيرتنا الحضارية، إذ كانت وما زالت تهتم دائماً بالمشاكل التي تواجه الإنسانية عِبرَ مسيرتها الحضارية، فتنبِّهها إلى مواطن الضعف والقوة، وتُحذِّرها من مواطن الزَّلل والسقوط. وهذا ما تنبَّه إليه الفيلسوف العربي الإسلامي ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م)، حيث قسَّم المُجتمعات الإنسانية من حيث درجة تحضرها إلى مجتمعاتٍ بدوية وأخرى حضرية، الأولى يكتفي فيها العِلم والثقافة والإمكانيات المادية الكبيرة ويكتفي بما هو ضروري فقط لمعيشتها، والثانية لا تنشأ إلَّا عندما تفيض الأرزاق عن الحاجة الضرورية، ويتسنَّى

للإنسان الحصول على العِلم والثقافة والحاجات الكمالية»[٧].

ما دفع الإنسان إلَّا أنْ يُدرك تاريخه الذي شكَّل الجانب الحضاري لديه، فارتبط الإنسان ذو التفكير الفلسفي بالتاريخ، وفي كافَّة مراحل الوعي المعرفي التي مرَّ بها، والتي تتناسب مع تطلعاتهِ نحو إدراك حقيقة الكون والحياة، وما تطلَّبه ذلك من وعي من قبل الإنسان بذاتهِ وبطبيعة أفعالهِ التي لا تقتصر على ما يستجد بها في حاضرهِ، بل تشمل ما حدث لها في الماضي أيضاً. وبهذا علينا القول إنَّ التاريخ كان وما يزال معرفة ملازمة لفكر الإنسان وطبيعته. وقد مرَّت هذهِ الصلة الوثيقة بين الإنسان والتاريخ بمراحل متعدَّدة، تطورت خلالها تلك المعرفة البدائية المُتناهية مع الطبيعة الإنسانية من صورتها الشفاهية الحسية إلى فضاءٍ رحب، بلغ فيه التاريخ سمو العِلم وارتقى معه الفكر التاريخي ليلتحم بالفكر الفلسفي ساعياً لحلِّ مشاكل التاريخ كعِلم، بل مشاكل البشرية، لأجل بلوغ الوجه الحضاري[٨].

بدأت العصور التاريخية منذ أنْ اخترع الإنسان الكتابة، وأخذ يُسجِّل ما يعرفه على الأحجار والكهوف والجلود والألواح الطينيَّة، وتختلف الأبحاث العلمية في تحديد السنة بالضبط، إذ تتراوح ما بين خمس آلاف سنة قبل الميلاد وثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، لكنها تتفق جميعها أنَّ ذلك تمَّ في بلاد ما بين النهرين (العراق حالياً) على يد السومريين الذين اخترعوا الكتابة المسمارية. وباختراع الكتابة في بلاد الرافدين بدأت العصور الإنسانية عهداً جديداً يُسمَّى بعصر التاريخ، أما العصور التي سبقت ظهور الكتابة فتُسمَّى عصور ما قبل التاريخ[٩].

إنَّ العاملين في التاريخ طلَّاباً وباحثين ساروا نحو توكيد الجوانب العلمية للتاريخ، من خلال استيعاب بعض أو مجموع قضايا الفلسفة وفلسفة العِلم من قبيل الفكرة أو المنهج، والقضية بحدودها وأبعادها، وهذا يضعهم في أحيانٍ كثيرة موضع ولوج بعض أبواب فلسفة التاريخ؛ ذلك لأنَّ التاريخ علمي في منهجهِ، وفي الطريقة العلمية الشك أول مراتب اليقين، لأجل ذلك قال علماء التاريخ إنَّ شكَّ المؤرِّخ رائد حكمته، وقالوا الأصل في التاريخ الاتهام لا البراءة.

الطريقة التاريخية أو المنهج التاريخي تعني عملية التشخيص أو التحليل الدقيق لسجلَّات الماضي ومخلَّفاتهِ وتفسير الوثائق. وفي الطريقة التاريخية يعتمد المؤرِّخ على الوثائق والمنطق؛ لأنَّ التاريخ بالنسبة للمؤرِّخ هو ذلك الجزء المحدود في ماضي البشرية الذي يخلق إعادة بنائهِ، أي روايته من السجلَّات المتوافرة ومن الاستنتاجات القائمة عليها، وعلى المؤرِّخ أنْ يتأكَّد أنَّ سجلَّاته تأتيه فعلاً من الماضي، وأنَّ واقعها هو ما تُبديه، وأنَّ خياله موجَّه نحو بعث الماضي لا خلقهِ من جديد، وبما أنَّ المؤرِّخ بعيد عن المشاهدة وعديم التجربة، يضطر أنْ يجتهد في الأمر ويتذرَّع بالمنطق، ولأجل ذلك ارتقى التاريخ ومنذ أمدٍ غير قصير إلى مرتبة العلوم المعترف بها. لقد أدخل المؤرِّخ الفرنسي إرنست رينان Joseph Ernest Renan (١٨٢٣-١٨٩٢م) منذ منتصف القرن التاسع عشر العلوم التاريخية في مؤلَّف (مستقبل العِلم)[١٠]، كما أثبت العلاقة فوستل دي كولانج Numa Denis Fustel de Coulanges (١٨٣٠-١٨٨٩م) ذلك في كتابهِ (العصر الوسيط)، وعرض جوزيف هورس Joseph Hours

(١٨٩٦-١٩٦٣م) رأي (كولانج) بتقديم، إذ أشار إلى السطور الآتية: "التاريخ علم لا يُتخيَّل بل يُرى. وهو نظير كلِّ علم ينظر إلى الأحداث ويُحلِّلها، ويُقارن بينها، ويُحقِّق الروابط القائمة بينها، والمؤرِّخ يبحث عن الحدث ويُدركه ويدرس النصوص بإمعان ودقَّة، والطريقة واحدة في كلِّ علمٍ مؤسَّس على الملاحظة الدقيقة".

ولا مناص من الإشارة إلى الجدل المُثار حول علمية التاريخ، وهذا يستلزم علينا نحن المهتمون بالتاريخ أنْ نستعرض بإيجاز الاعتراضات الرئيسة التي أُخذت على التاريخ بصفتهِ علماً من العلوم، وعلى المنهج التاريخي في البحث، وما يستنتج ذلك من وظيفة المؤرِّخ وطبيعة مهمتهِ، فقد ذكر المؤرِّخ الإنكليزي إدوارد كار Edward Hallett «Ted» Carr (١٨٩٢-١٩٨٢م) هذهِ الاعتراضات في خمس نقاطٍ رئيسة، هي:

- القول بأنَّ التاريخ يتعامل مع الاستثنائي، في حين أنَّ العِلم يتعامل مع العمومي.
- إنَّ التاريخ لا يُعلِّم أيَّ درس.
- إنَّ التاريخ غير قادر على التنبؤ.
- إنَّ التاريخ ذاتي بالضرورة؛ لأنَّ الإنسان يقوم بملاحظة نفسهِ.
- إنَّ التاريخ نقيض العِلم، يتطرق إلى قضايا الدين أو الأخلاق.

وقد جهد إدوارد كار على تقويم هذهِ الاعتراضات في محاولةٍ جادة لتصحيح النظرة إلى غاية المعرفة في إطارها الشامل وإثبات علمية التاريخ فيها[١١].

«وقد استمر الجدل بين أنصار علمية التاريخ ومناوئيهم، وقد ظهر ذلك جلياً في القرن التاسع عشر، حيث منح مؤرِّخو المدرسة المنهجية (الوضعانية) للتاريخ positivism صفة العِلم، باعتبار أنَّ التاريخ لا يتم إلَّا بالوثائق، وبما أنَّ الوثيقة هي الشاهد على أحداث الماضي، فإنَّ التاريخ بالنسبة إليهم علم. وإذا كان الهدف الأساسي الذي تسعى إليه الكتابة التاريخية هو الوصول إلى الحقيقة التاريخية كما حدث في الماضي انطلاقاً من الوثائق، فإنَّ السؤال الذي يطرح نفسه بحدَّة هو عن ماهية هذهِ الحقيقة؟ وهل الحدث التاريخي الذي يكتبه المؤرِّخون يُعبِّر عن حقيقة ما حدث بالفعل؟ أم أنَّ الواقعة التاريخية من صنع مخيلة المؤرِّخ وحده؟ ومن ثمَّ فهي تخضع للاختلاف من مؤرِّخٍ لآخر"[١٢].

فردَّ (كار) على الرأي القائل إنَّ التاريخ يتعامل مع الاستثنائي، في حين يتعامل العِلم مع العمومي. وفي هذا قال الفيلسوف البريطاني توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨-١٦٧٩م) حكمته الشهيرة: "لا شيء عمومي في هذا العالم سوى الأسماء؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الأشياء المُسمَّاة هو مفرد وحيد، وهكذا فإنَّ استخدام اللغة بحدِّ ذاتهِ يُلزم المؤرِّخ على غرار العالم بالتعميم". ويضرب (كار) على ذلك مثالاً استوحاه من قراءة كتاب توماس كارليل Thomas Carlyle (١٧٩٥-١٨٨١م)، (الثورة الفرنسية)[١٣]، قائلاً: «إني أجد نفسي مدفوعاً مراراً إلى إعمام ملاحظاتهِ بتطبيقها على موضوع الثورة الفرنسية المفضَّل لدي». ويمضي (كار) مؤكِّداً على اتجاه الإعمام في التاريخ فيقول: «إنَّ التاريخ ينمو بفضل التعميمات»، كما يذكر كلمات المؤرِّخ

جيوفري إلتون Sir Geoffrey Rudolph Elton (١٩٢١-١٩٩٤م) في إحدى الطبعات الأخيرة من كتاب (تاريخ كامبردج الحديث)، وهي أنَّ ما يُميِّز المؤرِّخ عن الذي يكتفي بتجميع الوقائع التاريخية هو التعميم، وينقل أيضاً الأعمال الكاملة لكارل ماركس Karl Heinrich Marx (١٨١٨-١٨٨٣م) وفريدريك إنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠-١٨٩٥م)، قول الأول في إحدى رسائلهِ: "إنَّ الأحداث التاريخية المتشابهة على نحوٍ صارخ سوى أنَّها تقع في بيئاتٍ مختلفة تاريخياً، وتؤدي إلى نتائج متباينة كُلِّياً. وبدراسة كلٍّ من هذهِ التطورات بصورةٍ منفصلة ومن ثمَّ مقارنتها فيكون سهلاً العثور على المفتاح لفهم هذهِ الظاهرة"، ويخلص (كار) بالقول: "إنَّ التاريخ يُعنى بالعلاقة بين المفرد والعمومي، وبوصفك مؤرِّخاً فليس بوسعك أنْ تفصلها، أو أنْ تُعطي الأسبقية لواحدٍ على الآخر، ممَّا يوسعك أنْ تفصل الواقعة والتعليل"[١٤].

أمَّا بشأن الرأي القائل بأنَّ التاريخ لا يُعلِّم (أي يُدرِّس) فإنَّ (كار) يرد عليه بجدية عميقة، من خلال مقارنة بين الدَّرس الذي كان ينبغي على أقطاب مؤتمر السلام في باريس سنة ١٩١٩م والدرس من مؤتمر فينا للسلام، قد أشار بصفتهِ عضواً في الوفد البريطاني إلى ما كتبه المؤرِّخ البريطاني تشايلز ويستر، الذي كان حينها موظَّفاً في وزارة الحربية عن تلك الدروس، إنَّ اثنتين من الدروس ظلَّا يجولان بالذاكرة، وهما أنَّه من الخطر كان لدى إعادة رسم خارطة أوروبا أنْ يتم إهمال مبدأ حق تقرير المصير الذاتي. والآخر أنَّه كان أمراً خطراً أنْ ترمي في سلَّة المهملات أيَّة وثائق سرية ترغب مخابرات الوفود الأخرى في الحصول عليها حتَّى لو كلَّفها ذلك مالاً، لقد كان لهذين الدرسين تأثيرٌ عميق علينا[١٥].

والتاريخ علم النظر في الأحداث وتدوينها بعد نقدٍ وتمحيص، بوصفها وثائق موضوعة عن أخبار ما حدث وما يحدث، فالتاريخ علم، ما في ذلك ريب؛ لأننا نستطيع أنْ نطلق كلمة (علم) على مجموعةٍ من المعارف المُحصَّلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوعٍ واحد معيَّن من الوقائع[١٦].

وقد ردَّ (كار) على القائلين إنَّ التاريخ خلافاً للعِلم غير قادر على التنبؤ، فيُشير إلى ما أحدثه التطور المعرفي من تغير في النظر إلى القوانين الطبيعة، والاتجاه العام إلى عدِّ قوانين العِلم التي تؤثر في الحياة اليومية ببياناتٍ حول الاتجاهات. أي بيانات حول ما سيحدث إذا ظلَّت الأشياء الأخرى على حالها أوفي ظروف المختبر، كما يُلاحظ بأنَّ النظريات الفيزيائية الحديثة تتعاطى مع احتمالات وقوع الأحداث. والتاريخ في هذهِ المسألة يلتقي مع العلوم الأخرى، فالمؤرِّخ وهو مُلزم بأنْ يفهم ويوفِّر توجيهات عمومية للعمل المقبل، وحقيقي أنَّ تنبؤاته ليست محدودة، لكنها مع ذلك سليمة ومفيدة. إنَّ التنبؤ المحدَّد غير ممكن؛ لأنَّ المحدَّد هو مفرد؛ ولأنَّه يتأثر بعنصر الهدنة أيضاً، وإنَّ المؤرخ شأنه شأن العالِم يستقرئ الظروف، ومن ثمَّ بوسعهِ يحتمل وقوع الحدث. إنَّ دراسة ظروف الثورات مفيدة كثيراً في إيضاح هذهِ المسألة، لكن ذلك ينبغي أنْ لا يُفسَّر على وجود حالة من التماثل أو التطابق بين استدلالات المؤرِّخ واستدلالات الفيزيائي، إذ شتَّان بين العيِّنة التي يدرسها العالِم والإنسان، وهي العيِّنة التي تدرسها العلوم الإنسانية[١٧].

لذلك فالفهم الجديد للتاريخ يرى إمكان الوصول إلى أحكامٍ كلِّية تُمكِّن من التنبؤ في المستقبل، وأنَّ سرَّ تقدم العلوم الطبيعية في وصولها إلى قوانين كُلِّية مكَّنت العالم من التنبؤ العلمي الدقيق، وتستطيع كلُّ العلوم التجريبية أنْ تقدم تقريراً عن موضوعاتها في أحكامٍ عامة، ويستطيع التاريخ أنْ يستوعب فردية وقائعية، وأنْ يرتفع بها إلى درجةٍ من اليقين، لا تقل في ذلك كثيراً عن الطبيعة أو الكيمياء، وأنَّ المؤرِّخ يُفسِّر اغتيال ملكٍ ما، كما يُفسِّر الجيلوجي وقوع زلزالٍ ما، فهو يُبيِّن أنَّ شيئاً ما لم يقع مصادفةً وفقاً لظروفٍ معينة، وليست التنبؤات في التاريخ غيبيَّة ولكنها علمية قائمة على أُسسٍ قانونية[١٨].

أمَّا بشأن الرأي القائل إنَّ التاريخ ذاتي بالضرورة، فإنَّ (كار) وهو يُقر الأبعاد الذاتية لدراسة التاريخ، يؤكِّد في ناحيةٍ أخرى بأنَّ التاريخ مُفعم بكلِّ أرجائهِ بالنسبية، فإنَّ التفاعل بين المؤرِّخ ووقائعهِ دائم وهو يتغير بصورةٍ متواصلة. وهذا الاتجاه الحقيقي في التاريخ يُجسِّد بالفعل الملموس الارتقاء بدائرة الذات إلى دائرة الموضوع، والتاريخ في وجهتهِ هذهِ يلتقي مع الاتجاه الجديد للعلوم التجريبية، فهي لم تعد تنظر إلى قوى الطبيعة شيئاً ينبغي أنْ يكافح ضدَّه، بل صارت أقرب إلى اعتبارها شيئاً يتعاون معه ويطوِّعه لأغراضهِ، كما لم تعد نظريات المعرفة الكلاسيكية تتلاءم مع العلوم الجديدة وبخاصةٍ مع الفيزياء، ولعلَّ من أبرز مظاهر التغيير في نظرة العلماء هو الإدراك بأنَّ عملية المعرفة لا تنفصل بين الذات والموضوع بحدَّة كما كان متصوراً، وإنَّما تتضمَّن قدراً من التداخل والترابط فيما بينهما.

أمَّا الرأي الآخر والقائل إنَّ التاريخ على نقيض العِلم، يتعرض إلى قضايا الدين والأخلاق، فيربط القضايا المتعلِّقة بموقف كلٍّ من المؤرِّخ والعالم على حدٍّ سواء، وبالنسبة إلى (كار) فإنَّه يرى أنَّ على المؤرِّخ أنْ يحلَّ معضلاتهِ دون اللجوء إلى الغيب. وفي معرض مناقشتهِ للأخلاق يرى «إنَّ تاريخ الأخلاقيات ليس جزءاً شرعياً من التاريخ، وأنَّه ليس من اختصاص المؤرِّخ أنْ يكون قاضياً»، ويستشهد بالفيلسوف والمؤرِّخ الإيطالي بينيدتو كروتشه Benedetto Croce (١٨٦٦-١٩٥٢م) في هذهِ النقطة بالذات، فينقل عنه قوله: "ينسى ذلك الاتهام الفارق الكبير المتمثل في أنَّ محاكمنا سواءٌ أكانت قانونية أم أخلاقية هي محاكم راهنة مخصَّصة لأناسٍ أحياء وفاعلين وخطرين، في حين أنَّ أولئك الرجال الآخرين قد ظهروا من قبل أمام محاكم زمنهم. وأنَّ لا سبيل لإدانتهم أو تبرئتهم مرتين. إنَّ من غير الممكن اعتبارهم مسؤولين أمام أيَّة محكمةٍ كانت. وذلك لمجرد أنَّهم من أهل الماضي الذين ينتمون إليه، وبصفتهم هذهِ فهم من رعايا التاريخ فليس بالوسع تحميلهم أيَّ حكم عدا ذلك الذي يخترق روح عملهم ويفهمها... أمَّا أولئك الذين يستندون إلى دعوى سرد التاريخ لكي يصبحوا كالقضاة ويوزِّعوا الإدانات هنا والغفرانات هناك؛ وذلك لأنَّهم يعتقدون أنَّ تك وظيفة التاريخ فيعتبرون بالإجمال مجردين من الحسِّ التاريخي"[١٩].

وفي هذا الصدد قال عبد الله العروي في مستهلِّ كتابهِ (ثقافتنا في ضوء التاريخ): «يتساءل المؤرِّخ عن صناعتهِ، فيعني بالتاريخ تحقيق وسرد ما جرى فعلاً في الماضي، ويتساءل الفيلسوف عن هدف الأحداث، فيعني بالتاريخ مجموع القوانين التي تُشير إلى مقصد حفي يتحقَّق تدريجياً». وهذهِ

المقارنة بين مؤرِّخ وفيلسوف التاريخ وصلت إلى حدود السخرية أحياناً، وبوسعنا أنْ نُشير هنا إلى ما كتبه إدوارد كار مثلاً في وصفهِ لمؤرِّخي المدرسة الألمانية الحديثة المتمسكة بالوثيقة إلى أبعد الحدود، يقول: «كان المؤرِّخ الموقَّر يدنو منها (أي الوثائق) وهو منخفض الرأس، ويتحدث عنها بجلالٍ واحترام». ولكن هذهِ الوثائق ليس بوسعها أنْ تقدم أكثر ممَّا أُريد لها أصلاً، وبذلك يكون في نظرتهِ هذهِ موافقاً (براكلو) الذي نقل عنه قوله: «إنَّ التاريخ الذي نقرأ بالرغم من قيامهِ على الحقائق فهو ليس حقيقياً بالتأكيد، ولكنه سلسلة من الأحكام المقبولة»، والمُلاحظ أنَّ هذهِ الرؤية الفلسفية إلى التاريخ شَهِدت مزيداً من التطرف على يد الفيلسوف الإيطالي (كروتشه)، حيث أعلن في أوائل القرن الحالي «إنَّ التاريخ بأجمعهِ هو تاريخٌ معاصرٌ»، قاصداً بذلك «إنَّ التاريخ يتألَّف بصورةٍ أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكلهِ، وكذلك إنَّ العمل الأساس للمؤرِّخ هو ليس التدوين وإنَّما التقويم»[٢٠].

وبهذا يقول أوسفالد اشبينغلر Oswald Manuel Arnold Gottfried Spengler (١٨٨٠-١٩٣٦م): "إنَّ الذي دفعني في الواقع إلى التأمل في هذا الموضوع من مواضيع وعينا للعالم، هو مشاهد في المؤرِّخين المعاصرين وهم يعمهون ويدورون حول الحوادث المحسوسة والأشياء الجارية، ويعتقدون مع ذلك بأنَّهم قد أدركوا التاريخ وعرفوا جريانهِ وصيرورتهِ نفسها. وهذا مألوفٌ لكلِّ مَن ينطلق من العقل والمعرفة ضدَّ الإدراك المميز البديهي مثلاً"[٢١].

وهكذا تظهر أمامنا وبشكلٍ جلي أنَّ المشكلة بين المؤرِّخ والفيلسوف هي تجسيدٌ فهمي لإشكالية فهم التاريخ. وهي إشكالية لم يستطع الفيلسوف أنْ يكون متنزِّهاً عن المقاصد في معالجتها، ولم يستطع المؤرِّخ كذلك التخلِّي عن مرجعياتهِ الثقافية بشكلٍ كامل[٢٢].

على هذا أدرك المختصون في الفلسفة والتاريخ أنَّ الأحداث التاريخية المختلفة والمتباينة والمتكدِّسة في كتب التاريخ لا تزيد الإنسان معرفةً أو هدىً، فإنَّ قيام المؤرِّخ بسرد وقائع وأحداث جزئية لا يقود إلى حكمةٍ يمكن من خلالها قراءة الحاضر ورسم المستقبل، إذ إنَّ الفهم العميق للماضي يزيد الإنسان معرفةً بدورهِ الحضاري والتاريخي. ومن هنا نشأت الحاجة إلى فلسفة التاريخ التي تمثل (النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرةٍ فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكَّم في سير الوقائع التاريخية، والعمل على استنباط القوانين العامَّة الثابتة التي تتطور بموجبها الدول والأُمم على مرِّ القرون والأجيال)[٢٣].

كما يُعرفها ويليام هنري وولش William Henry Walsh (١٩١٣-١٩٨٦م): "إنَّ الفلسفة تأملية ميتافيزيقية إلى حدٍّ كبير، وكان هدفها هو فهم سير التاريخ ككُل، وذلك لإثبات أنَّ التاريخ وحدة، ويمثل خطَّة كُلِّية، بالرغم من التفكُّك والانحرافات الظاهرة"[٢٤].

وفلسفة التاريخ تحاول إرجاع التغير الاجتماعي والتاريخي إلى قوانين، ومن جهةٍ أخرى تحاول فحص وتحليل عمل المؤرِّخ للتأكد من صحَّة الوقائع التاريخية التي يدوِّنها، وكذلك استشراف آفاق المستقبل الذي تنتظره الإنسانية[٢٥].

لقد كثُر الجدال بين الدارسين في حقل التاريخ، عمَّا إذا كانت أحداث التاريخ محكومة

بقانـون العلِّيَّة وأصولهِ مـن حتميةٍ وتعميم، أم هي منفصلـة عـن بعضهـا، وليـس بينهـا أيَّ نحـو من أنحـاء السـببية. يذهب قسـم منهـم إلى أنَّ التاريخ هـو نتـاج الفعل الإنسـاني، يتغـير بتغـير الظروف والأحداث والمُلابسات التي تُحيط بهِ؛ لذا لا يمكن التنبُّـؤ بأحداثهِ، وذهب قسـمٌ آخـر إلى تأكيد العلِّيَّة في الأحـداث والتغـيرات التاريخيـة، وإلى أكثر من ذلك أشـار بعضهم إلى الحتمية التاريخية التي تلغي دور الإنسان الفرد ونشاطه في المسيرة التاريخية. كما حوَّلت فلسفة التاريخ بيان اتجاه التاريخ وغايته، إذ ذهـب اللاهوتيـون في العصر الوسـيط إلى أنَّ غاية التاريـخ هي خلاص الإنسـان من الخطيئـة، إلَّا أنَّ هـذا القول قـد أنكره رجـال عصر النهضـة الذين اتخـذوا مـن التقـدم المسـتمر للعقل الإنسـاني غايةً مكانها[٢٦].

إنَّ الـذي أدَّى إلى نشـأة فلسـفة التاريـخ هـو قصور الطريقة التاريخية عن اكتشاف مسار التاريخ وغايتـهِ، فجـاءت فلسـفة التاريـخ لتقـدم العـون والمسـاعدة للمؤرِّخين من أجل بلـوغ هذا الهدف، فالمـؤرِّخ يحـرص على إثبـات الواقعـة التاريخية عن طريق الوثيقة فقط، كما حصل مع مؤرِّخي المدرسة الألمانية وقدسية الوثيقة لديهم، إلَّا أنَّ تلك الوثائق والحقائـق، فضـلاً عن كونها أساسـية للمـؤرِّخ إلَّا أنَّهـا غير كافية للإجابـة عن السـؤال المتعلِّق بماهيَّة التاريخ[٢٧].

ومن دون النظرة الشاملة التأملية يبدو التاريخ أحداثـاً متراصة بـدون فائدةٍ تُذكـر، فالمؤرِّخ الذي يـروي الأحـداث دون أنْ ينظـر إليها تلـك النظرة الشـاملة كالحمار يحمل أثقالاً، فهو يحمل الأحداث على ظهـرهِ أو بالأحرى يضعها عـلى الأوراق دون أنْ يتسـاءل عن مغزاها، والهـدف الذي يُراد تحقيقه مـن وراء رواياتها، وعـلى المؤرِّخ هنـا أنْ يتناول أيَّة فائـدةٍ يمكـن أنْ نجنيهـا من هـذا الكـمِّ الهائل من الروايـات للأحداث التاريخيـة في مختلف العصور، وكيـف يمكن لأُمَّةٍ مـن الأُمم أنْ تسـتفيد من هذا التراكم للأحداث التي عاشـتها وتعيشها، دون أنْ يمتلك أبناء هذهِ الأُمـة (أي مؤرِّخيها) القدرة على التسـاؤل عن مغزى هذهِ الأحداث، وكيف يمكن خلالها تأملها واستشراف ما يمكن أنْ تقود إليه من أحداثٍ جديدة في المسـتقبل[٢٨]. والمـؤرِّخ عليه أنْ يرتفع قليلاً فوق رواية الأحداث وتتابعها الزمني، يعنـي فـوق ذكـر الحـوادث المحفوظـة المتكـررة المتتالية، وهو حينئذٍ سـيجد نفسه يتفلسف دون أنْ يعلم، والأفضل دون شك أنْ يتفلسف وهو يعلم، ومن أجل هذا لا بدَّ من تنشئةٍ فلسفيةٍ قوية[٢٩].

والنظـرة التي يتكامل فيها عمـل المؤرِّخ وعمل الفيلسوف بالنسبة للتفسير النهائي لأحداث التاريخ تبـدو بوضوح، إذا ما أدركنا أنَّ عمل المؤرِّخ عادةً ما ينصب على التنبؤ بالمستقبل، فالحقيقة التي تستدعي انتبـاه الفيلسـوف – على حدِّ تعبـير (كولنجوود) – ليسـت هي الماضي في حدِّ ذاتهِ كما هو الحال بالنسـبة للمـؤرِّخ، فـإنَّ التاريخ بالنسـبة للمـؤرِّخ هو لحظتا المـاضي والحـاضر، وأقصى ما يطمح إليـه المؤرِّخ أنْ يفهـم الحدث الحاضر من خـلال الأحداث الماضية عـلى أسـاس مبـدأ العلِّيَّـة العلميـة. أي الترابط بين العِلَّة والمعلول، بينما التاريخ بالنسـبة للفيلسوف هو لحظات الزمان الثلاث: الماضي الحاضر والمسـتقبل، هولا يتأمل أحداث الماضي لفهم الحاضر فقط، وإنَّما لكي يكون لديه القدرة على قراءة أحداث المستقبل، وهـذهِ القـراءة لِمَـا يمكـن أنْ تكون عليـه الأحداث التاريخية في المسـتقبل هو مـا تتبدَّى فيه حقيقة منفعة التاريخ[٣٠].

## المبحث الثاني

## التفسير الخرافي والأسطوري للتاريخ

### أولاً: الأسطورة لفظاً واصطلاحاً

«لم يختلف العلماء والمفكِّرون والباحثون، بقدر ما اختلفوا في تحديد أصل ومضمون الأسطورة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتَّى. وقد جاء لفظ الأسطورة في اليونان من كلمة (ميثوس) لتدل على القصة المتواترة أو الحكاية التقليدية عن الآلهة والأبطال. ومنها اشتُقت كلمة (الميثولوجيا) Mythology بعدئذٍ لتدل على علم دراسة الأساطير، وفي اللغة العربية جاءت كلمة الأسطورة اشتقاقاً من (سطر) أي ألَّف الأساطير أو الأحاديث العجيبة التي لا نظام لها، والأقاويل المُنمَّقة المُحرَّفة. كما وردت لفظة (الأساطير) في القرآن الكريم بالذات، فيما يمت للقدماء من أحاديث {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}[٣١].

إنَّ الأسطورة تلازمت مع الطقوس، وبرَّرتها، وشكَّلت جانبها الأدبي المروي، بينما كانت الطقوس تُشكِّل الجانب العملي. ويقين أنَّ الأساطير والطقوس أدَّيا دوراً كبيراً في نشوء المُعتقدات الدينيَّة، فالإنسان لم تكن له القدرة، قديماً، على التفكير المنطقي المُمنهج، بل كانت له القدرة على التخيل، والقص، ورواية أحداث مقدسة ترتبط بالآلهة، وهي الأساطير، ودليلنا على ذلك ظهور الفلسفة، لاحقاً، عن الإغريق من الأسطورة[٣٢].

وقد شَغِلت الأساطير موقعاً بارزاً في الحياة الروحية والفكرية لأُمم العالم القديم. وكان للأساطير علاقة وثيقة بالتاريخ لِما تضمَّنته من مادةٍ تاريخية أولية، وتفسير لحوادث التاريخ. ويمكننا القول إنَّ النمط القَصَصي الذي تميَّزت بهِ الأسطورة كان الخيط الأول في لحمة التاريخ، ويعكس طبيعة العلاقة الجدلية التي تربط الأسطورة بالتاريخ، وأداة اعتمدتها الأسطورة للإفصاح عن طبيعتها ومكوناتها وغاياتها، وعلى الرغم من أنَّ العلاقة وثيقة بين الأسطورة والتاريخ، فإنَّها تبقى تعكس ثُنائية متلازمة ينطبق عليها تعريف (العلاقة الجدلية) التي يذهب إلى أنَّها علاقة بين ثنائيات متناقضة يستدعي بعضها بعض. فالأسطورة والتاريخ بينهما نوع من التعارض، ولكنه ليس تعارضاً مفرَّقاً، إذ إنَّ هناك مستوى في العلاقة الوسيطة المشتركة بينهما. والأسطورة هي بداية تدوين التاريخ، والأسطورة هي العِلم البدائي أو التاريخ الأول. وقد عبَّرت أساطير نشأة الخلق لدى الأُمم القديمة عن محاولاتٍ قامت بها البشرية الأولى للتعريف على كُنه بداية الحياة على الأرض وتفسير مغزاها، إذ تكشف هذهِ الأساطير عن فكرة التطلُّع الإنساني الدائب إلى الكشف عن بواعث الأحداث، والرغبة في التنبؤ بسيرها والتحكم في مصيرها،كما أنَّها لا تخلو من محاولةٍ للعثور على معنى لحياة الإنسان[٣٣].

والواضح أنَّ هذهِ الأساطير خلصت إلى أنَّ الآلهة هي التي تتحكَّم في طبيعة الحوادث التي تمر بها البشرية عِبرَ تاريخها، والأسطورة كانت تتصور إنجازات الآلهة والكائنات العليا ومشيئتها على أنَّها وراء أعمال البشر، وكانت الأساطير حول السُّلالات الحاكمة وحول ملوك الماضي السَّحيق، وتأثيرهم في توجيه مسار التاريخ من خلال حروبهم وحملاتهم العسكرية وأعمالهم الأخرى، فكان

سرجـون الأكـدي (٢٧٣٠-٢٣١٦ق.م.) يصوَّر من خلال تلك الأسـاطير كأنَّه ملك شبه أسطوري خلال الألف الثاني قبل الميلاد. وأسطورة الطُّوفان عنـد السـومريين والبابليين كانت تتضمَّن تفسـيراً لنهاية التاريخ، من خلال تفسـير التاريخ البشري، والحديـث عن نهايتِهِ التي أدت إليها تصميم الآلهة، ومـن ثمَّ هـلاك الجنس البـشري. وإنَّ الأسـطورة مجموعة من الحكايا الغيبية، أو الروايات المنسـوجة عن الأقوام المتداولة بين الناس في القبيلة أو الجماعة الحرفيـة لغرض تجاربهـا، وعالمها فرديـاً أو جماعياً، وقـد تفسِّر الأسـطورة خلق الكـون أو الإنسـان، وقصة الموت والقرابين وبطولات الأبطال[٣٤].

وتُعد الأسطورة موضوع اعتقاد ويقين، وهذهِ الصفة الوحيدة التي تميزها من الحكايات الخرافية، وأنَّ الأصـل الأسـطوري للأشـياء كان أسـبق من الأصـل التاريخي، فيما تمثل الأسـطورة المحاولات الأولى لتبيُّن الترتيب الزمني للأشـياء والأحداث، والزمن الأسـطوري ليس محدداً، إنَّما هو زمنٌ أزلي، وعندمـا نحلِّـل الأفكار الأسـطورية نجـد حقيقة الأحـداث التي تمثـل عالماً غير عالم الأسـطورة، أو الخيـال، إنَّـه التاريـخ الأول، أو التاريـخ البدائـي للطبيعـة؛ لأنَّ أصـول معظـم الأسـاطير يرجع إلى الطبيعـة؛ لذلـك فالأسـطورة تمثـل سـجلاً تاريخياً مضبوطاً للأحـداث الجارية عِـبرَ ماضي الجماعات والشعوب، وسـجلَّات التاريخ مملوءة بالأساطير، وهـذا مـا يُعزِّز كونها تاريخـاً أوليـاً أو بدائياً، يُروى لغرض الاسـتفادة منه، وأخذ العِبرة والحكمة لبناء الحاضر والمستقبل[٣٥].

الأسـطورة تتميَّـز عـلى التاريـخ مـن وجهـة نظـر كلـود ليفـي شـتراوس Claude Lévi-Strauss (١٩٠٨-٢٠٠٩م) مـن خـلال زمنها غـير المحدد، إذ هي تفسـير الماضي والحاضر والمستقبل، في حين قد يقتصر التاريخ على حوادث حصلت في زمنٍ غابر بعيد، ممَّا يمنح الأسطورة كما هو واضح شـمولاً وأصالة، فالأسطورة تهدف إلى الكشـف عن الثوابت، ولا تسـعى بشـكلٍ أساسي للتعـرف إلى تتابع الحـوادث، ممَّا جعلها تسـتمر في حياتها حتَّى مـع انبثاق السَّـرد التاريخي، وتتعايش مـع التاريـخ، في كثـيرٍ مـن الأحيـان، مـن دون أنْ تتجـاوز عـلى خصوصيتـهِ؛ لأنَّ لـكلٍّ منهـا هدفـاً خاصاً بهِ. وإنَّ قسـماً كبيراً من الأساطير يمثل مجال الأفعـال الخاصـة، وعندئذٍ يصبح مـن مهمة علماء الأسـاطير البحث عمَّا إذ كان يوجـد فيها مضمون عـام أولا يوجـد. والتفسـير الأسـطوري للتاريخ لا يخلـو مـن رؤىً وتفسـيرات للحيـاة والكـون، فكان الإنسـان وحياته وموضوعاتـه هي الموضوع الأول بالنسـبة للأسـاطير، وإنَّ القـارئ المُدرك للأسـطورة يجـد أنَّ الأسـطورة لا تمثـل الخرافة أو السَّـرد غير العقـلي، بل يفهم بأنَّهـا تمثل روح عصرٍ مـا، وإنَّها تاريخ لعادات وسـلوك وتقاليـد أُمَّةٍ ما، أو شـعبٍ كان يعيشـها، فتناقلـت بالتراتـب حتَّـى وصلـت إلى عقل المـؤرِّخ، فهي جـزء أو فتات من هويةٍ مـا، والهوية تمثل الذاكـرة التاريخية، ومنه فإنَّ الأسـطورة كانت مصدراً مهـماً من مصادر المعرفة، مثلـما لاحظنـا في الفلسـفة اليونانيـة، إذ إنَّ مصادر دراسـة الفلسـفة اليونانية كانت الأسطورة؛ لذلك فإنَّ التفسـير الأسطوري للتاريخ قبل ظهور فلسفة التاريـخ كان شـائعاً؛ لأنَّـه يتماشـى مـع ثقافة ذلك العصر. والتفسـير الأسـطوري الـذي نقصده فهو ليس أسـطورة الحكي الخرافي، بل أسـطورة تحويل مـا هو غـير طبيعـي إلى طبيعـي، أي القيـام بتطبيع كل مـا هو مخالف للموضوعيـة وجعله أمراً طبيعياً وبديهياً[٣٦].

## ثانياً: الخرافة وعلاقتها بالفعل التاريخي

«لقد أرتبط مفهوم (الخرافة) بأذهان الكثيرين بمفهوم الأسطورة والحكاية الشعبية، بالرغم من الاختلافات الشاسعة بين هذهِ المفاهيم الثلاث. وقد جاء اصطلاح (الخرافة) اشتقاقاً بمعنى (الحديث الباطل مطلقاً)، وهي من (خرف) (خرفاً) أي فَسُدَ عقله، لذا اعتقد بعضهم بأنَّ نشأة الخرافة ناتج من سيادة الأهواء والانفعالات على العقل»[٣٧].

ومع هذا تعدَّدت الآراء والتفسيرات في تحديد مضمون الخرافة وعلاقتها بالفعل التاريخي. وقد رأى بعضهم أنَّ الخرافة حكاية بطولية ملأى بالمبالغات والخوارق، إلَّا أنَّ أبطالها الرئيسين هم من البشر أو الجن ولا دور للآلهة فيها. فقد ورد في الحكايات الشعبية العربية أنَّ (خرافة) كان رجلاً من عذرة أسرته الجن، فمكث فيها دهراً ثمَّ ردوه إلى الإنس، فكان يُحدِّث الناس بما رأى من الأعاجيب، فقال الناس في ذلك: (حديث خرافة)، وبهذا غدت الخرافات مصدراً هاماً للتفكير قد تمثل ذلك في ردِّ الناس ما يتعذَّر إدراكه أو فهمه عليهم إلى فعلٍ قوي آخر، ليس له وجود في الواقع وتكوين إجابات جاهزة لكثيرٍ من الظواهر.

وفي معرض تحليلهِ للخرافة أشار عمر فروخ (١٩٠٤-١٩٨٧م) إلى ارتباطها بأشخاصٍ وحوادث واقعية. وعلَّلها بأنَّها حادثة حقيقية فُسِّرت تفسيراً خاطئاً. ويرجع ذلك بنظرهِ إلى الكُتَّاب والقصَّاصين والشعراء الذين تناولوا أولئك الأشخاص وتلك الحوادث بالخيال والمبالغة والتقديس، حتَّى أخرجوها من نطاق التاريخ إلى جو الخرافة. كما أضاف: إنَّ الخرافات مع كلِّ ما فيها من المبالغات والحوادث المصنوعة، تدخل مع الأيام في خيال الأُمم ثمَّ يتناولها الكُهَّان والقصَّاصون والشعراء بالتبسيط والتأنق وبالتشابه والاستعارات، وتتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، حتَّى تغدو قطعةً فنية وأدبية في حياة الأُمة وحضارتها. وممَّا يساعد على انتشار الخرافة أنَّها تُنسب عادةً إلى كائنٍ له قداسة، أو رهبة أو أمر من أمور الغيب، ممَّا ليس للبشر عليه سلطان، ممَّا يكون لها أبلغ الأثر في حياة المرء. وكما أرجع إلى (الجهل) السَّائد في الأزمنة السحيقة علَّة انتشار وتأثير الخرافة. وعلى الرغم من تجاوز الخرافة للعقل، هناك مَن يعطيها قيمةً إبداعية للأفكار والتصورات. يقول نيكولاس فريدة: الخرافة ميراث الفنون، وهي معينٌ لا ينضب للأفكار المُبدعة وللصور المبهجة وللمواضيع الممتعة وللكنايات والاستعارات. من هنا جاءت الخرافة معبَّر عنها في أغلب الأحيان على شكل حكاياتٍ خرافية و (سير شعبية)، أمَّا الأسطورة فتبقى لها حبكتها وخصوصيتها. ومع أنَّ كُلَّاً من الخرافة والحكاية الشعبية والحكم والأمثال الشعبية قد تلعب دوراً ثقافياً شبيهاً بدور الأسطورة، إلَّا أنَّها لا تمتلك قوة وتأثير ما تملكه الأسطورة من طابع القداسة والاعتقاد والحبك الفني والمضمون[٣٨].

«ويُلحظ أنَّ العرب كانوا قد برعوا منذ القِدَم في صنع الحكايات الخرافية والأساطير وصياغة الملاحم، لاسيَّما ما وجد منها في شبه الجزيرة العربية والعراق القديم، ففي التراث والمُعتقدات العربية القديمة هناك شواهد متعددة على ارتباط الخرافات بالحكايات والسير الشعبية، منها (سيرة سيف بن ذي يزن) التي اختلطت بعناصر خيالية جامحة، و (سيرة عنترة بن شدَّاد) التي تبدو بطبيعةٍ أسطورية أكثر منها خرافية. وهناك حكايات وسِيَر أخرى،

منهـا: (زرقـاء اليمامـة) و (الأمـيرة ذات الهمَّـة) و (السـيرة الهلالية) و (سـيرة علي الزيبق)، وغيرها. إذ اعتقد بعضهم أنَّها نماذج حقيقية عاشـت يوماً ثمَّ دفعتهـا حياتها إلى مرتبة الأبطال. لقد ظهر (بن ذي يزن) بطلاً خرافياً تلاحمـت فيه قوى الطبيعة بقوى ما وراء الطبيعة، لا بل يلتقي المردة والجن والغيلان ويحارب السَّحرة. ومن جهةٍ أخرى حاول بعضهم النظر إلى هذهِ السِيَر والقصص الطقوسية والملاحم والأناشـيد الروائيـة بوصفهـا مدوَّنـاتٍ تاريخيـة. وبهـذا يـرى جـوردن تشـاليد Vere Gordon Childe (١٨٩٢-١٩٥٧م) أنَّهـا كانـت بمثابـة العناصر التاريخية الأولى كما وقف الشعراء، لاسيَّما الشـعبيون منهـم، عند حكايـاتٍ كهـذهِ، ودفعهم الإغراق في الحماس إلى نظم الأشعار حولها، ومثلها كذلك حكايات الجن والغول والسعلاة، والأحلام والسحر. إضافةً إلى حكاياتٍ خرافية أعاد صياغتها كبار الأدباء والشـعراء، رغم اتصافها باللاعقلانية وسـذاجة أحداثها، ومن هؤلاء الأديب والشـاعر الألمـاني يوهـان غوتـه Johann Wolfgang von Goethe (١٧٤٩-١٨٣٢م) حيث تمكَّن من نقل الحكاية الخرافية من المفهوم الضيق للأدب الشـعبي إلى المفهوم الإنسـاني الأشـمل، وليستنبط منها قيماً تربوية وأخلاقية"[٣٩].

ومـع هـذا، هنـاك مَـن حـاول ربـط الحكايـة الخرافيـة بالحيـاة الدينيَّـة والطقوسـية والنفسـية، فقـد أكَّـد كلٌّ من إدوارد تايلـور Sir Edward Burnett Tylor (١٨٣٢-١٩١٧م) وأنـدرو لانـغ Andrew Lang (١٨٤٤-١٩١٢م) مـن علـماء الأنثروبولوجيـا، أنَّ موضوعـات الحكايـة الخرافيـة تصدر عـن تصـوراتٍ دينيَّة من الممكـن أنْ تنشـأ منفصلـةً بعضهـا عـن بعـض، ويـرى الباحث الفرنسي سـانت بيـف Charles Augustin Sainte-Beuve (١٨٠٤-١٨٦٩م) في الحكايـة الخرافية بقايا طقوس قديمة. أمَّـا سـيغموند فرويـد Sigmund Freud (١٨٥٦-١٩٣٩م) ومدرسـته النفسية والتحليلية فقـد فسَّروهـا بوصفها رمـوزاً للظواهر الجنسـية. أمَّـا أندريـه يولـس وماكس لـوتي Max Lüthi (١٩٠٩-١٩٩١م) فقـد حـاولا وضـع حـدود لشـكل الحكايـة الخرافيـة مقابـل أشـكالٍ أخـرى مـن أدب الملاحم. كـما رأى آخرون أنَّهـا لا تعتمد الحدث أساسـاً لها، وإنَّما تعتمد البطل وبذلك تختار من الأحداث ما يُلقي الضوء على شـخصيتهِ ويؤثر في حركتهِ. كما دخلتها أقاصيص الحيوان لاسـيَّما في مجال التصورات (الطَّوطمية) وتصورات الإنسـان في الأحـلام، إذ اتصفت الحكايـات الخرافية بتنوع مضامينهـا وأهدافها. وقد صنَّـف الباحث الألماني فيلهيلـم فونـدت Wilhelm Maximilian Wundt (١٨٣٢-١٩٢٠م) هـذهِ الحكايـات إلى أنـواعٍ متعـددة، منهـا: الحكايـات الميثولوجية، وحكايات السـحر الخرافيـة الصِّرفـة، والخرافات البيولوجية، وخرافات الحيوان، وحكايات أصول القبائـل والشـعوب، وحكايـات هزليـة خرافيـة، وخرافـات الحكايـات الأخلاقيـة. ومـن هنـا فقد ارتبطـت الحكايـات الخرافيـة بالحكايات والسِـيَر الشعبية. وهناك مَن يجد في الحكايات الشعبية تعبيراً عن وظيفةٍ أساسية في الكشف عن القِيَم الأخلاقية المُتصدِّعة في المُجتمع الشـعبي من ناحية، وفي تأكيد القِيَم الإيجابية المرغـوب فيها من ناحيةٍ أخرى. كما وجدت حكايات تُعبِّر عن أرضيةٍ سياسـية لاسـيَّما الأدب الشـعبي الذي لا ينتسـب إلى مؤلِّفٍ بعينهِ، ولذلك يتَّسـم بالصراحة في التعبير عن مشـكلات

الحيـاة التي يعيشـها الناس. ومنها أيضـاً حكايات تُعـبِّر عـن طموحـاتٍ ورغبـةٍ شـعبية في أنْ يسـود الحاكم العادل والحكيم . وحكايات أخرى تعكس موضوعـاتٍ تخـص نصيـب الإنسـان مـن الرزق، وموضـوع الحياة والمـوت، ومخاوف الإنسـان إزاء العالم المجهول، إضافةً إلى حكايات المُعتقدات التي تجمع بين الخيال واللامنطق والخرافة(٤٠).

## ثالثاً: أبرز مدارس التفسير الأسطوري

لقد هيمن الفكر الأسـطوري ردحاً طويلاً من الزمن على معتقدات الإنسـان، لا بـل غالباً ما حدَّ سلوكه واتجاهاته في الحياة، ولكن مع مطلع الصور الحديثة أدى التطور بالعلوم إلى الازدراء بالأسطورة لتنافيها مع التفكـير العلمي الجديد. وخلال عصر التنويـر الأوروبي تعرضت الأسـطورة إلى الإهمال والنقـد، فقـد عدَّهـا ماكـس مولـر Friedrich Max Müller (١٨٢٣-١٩٠٠م) مرضـاً مـن أمـراض اللغة، في حـين رأى فيها هربرت سـبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣م) مـن قبيل الإدراك البدائي والخاطئ. وخلال القرن التاسـع عشر أعـاد الكثير من المفكِّريـن والباحثين الأوربيين الاعتبار للأسـطورة بوصفها شـكلاً فنياً مـن أشـكال (الفولكلـور) والأدب الشـعبي. ولم يلبـث أصحـاب المدرسـة الرومانتيكيـة أنْ عـدوا الأسـطورة أصلاً للفن والديـن والتاريخ، وغدت منـاراً لإنتاجهـم الفكـري والأدبي. أمَّـا العلـوم الإنسـانية فقد أخـذت البحث في المعـاني والرموز الكامنة في الأسطورة، بغية التعمُّق في فهم الإنسان سـلوكه وحياتـه الروحيـة والنفسـية وعواطفـه ودوافعـه. وبهـذا عُدَّت الأسـطورة فرعـاً هامَّاً من العلـوم الإنسـانية، يرتبط بعِلم اللغة والدراسـات الأدبية والنفسـية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وتاريخ الفن والأديان.

ومـع هـذا، ظهـر فـرعٌ جديـد مـن فـروع المعرفـة بدراسـة وتفسـير الأسـاطير أُطلـق عليـه بـ(الميثولوجـي) (علـم الأسـاطير). وقـد اهتـم هـذا العِلم الحديث بتعريف الأسـطورة، ودراسـة بواعـث نشـوئها وتفسـيرها إلى جانـب وظائفهـا اللغويـة والنفسـية والفكرية والاجتماعيـة والفنية، ومنـذ نهايـة القـرن التاسـع عشر ظهـرت مدارس كثيرة اسـتهدفت تقديم نظرياتٍ شـاملة في تفسـير الأسـطورة، إلَّا أنَّ معظـم هـذهِ المـدارس حـاول التمسـك، كلٌّ حسـب علمهِ واختصاصهِ، بالنظرة الأُحاديـة لتفسـير الأسـطورة، ومن هنا غـدا علم الأسـاطير موضوعاً أخذ مكانته بـين فروع المعرفة الأخرى(٤١).

### أ. علاقة الأسطورة بالطبيعة

أكَّد أصحاب هذا الاتجاه على إرجاع الأساطير إلى أصـولٍ ترجـع إلى الطبيعـة ذاتهـا مـا يتصـل بهـا مـن ظواهـر، فالكثـير مـن الأسـاطير تركَّزت حول الشـمس والقمـر وظواهر الطقـس المختلفة كالصواعـق والرعود والغيـوم والبراكين وغيرها. ويُعتـبر روبـرت وود William Robert Wood من بين الأوائل الذين كانوا يرون إمكانية تفسـير الأسـاطير بالرجـوع إلى أصولهـا الجغرافية والطبيعيـة، وهنـاك مَـن أكَّـد أنَّ الأسـاطير ما هي إلَّا قَصَـص مجازيـة عن مجريات الأمـور في الكون، بـل هي تعبـير عـن تاريخ الطبيعـة بعينـهِ. ويلحظ اقتران أسـماء الآلهـة منذ القِـدَم بالفلـك والتنجيم وأسماء النباتات والكواكب والبروج، ويرى شارل فرانسـوا Charles François Dupuis (١٧٤٢-١٨٠٩م) في كتابـهِ (أصـل العبـادات)

على أنَّ البروج (هي الرَّحم التي حملت بجميع الأساطير)، كما عزاها آخرون جغرافياً إلى العناصر الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب)، في حين أرجعها بعضهم إلى ابتداع المُنجِّمين والكيماويين البدائيين[٤٢].

لقد أثَّرت الظواهر الطبيعية في مخيِّلة الإنسان منذ عهدٍ بعيد، وترتب على ذلك تأليه هذهِ الظواهر والبيئيَّة المحيطة، والأساطير الوثنية التي عكستها الحضارات القديمة لاسيَّما السومرية والبابلية والآشورية ومثلها اليونانية والرومانية، وحتَّى القبائل البدائية ربطت كلَّ ظاهرةٍ طبيعية بآلهةٍ خاصةٍ بها، كما ظهرت أساطير ارتبطت بالعناصر العلمية حيث تناولت ما يُعرف (حجر الفلاسفة)، وهذا ما دفع فرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦م) إلى اعتبار الأسطورة بمثابة تجسُّد لحقيقةٍ طبيعية وإنْ تكن متنكرةً بمظهر عالم الطبيعة ليس مجرد وصف هذا لشيء بل تفسيراً لكيفية وجودهِ[٤٣].

وإنَّ إعطاء ظواهر الطبيعية هذهِ أدواراً وسِمَاتٍ إنسانية تُعبِّر عن الحس والقصد والإرادة ولم يكن بحدِّ ذاتهِ إلَّا دلالةً على إعطاء الفكر الغيبي البدائي ودرجةً عالية من الخيال. وقد أشار بعضهم من المعنيين بدراسة الأساطير ومنهم فرديناند فروبنيوس Ferdinand Georg Frobenius (١٨٤٩-١٩١٧م) على وجود عنصر أولي مشترك بين الحضارات البشرية أو الجماعات الإنسانية يُغذِّي فيها ميلاً نفسياً أو فكرياً متجانساً في مجال الأسطورة، ولاسيَّما تفسير ما يجري في الكون وإدراك الوجود الإنساني. أمَّا فردريك ماكس مولر Friedrich Max Müller (١٨٢٣-١٩٠٠م) الذي تركَّزت دراسته حول علم الأسطورة المقارن، فقد رأى أنَّ ملامح التخاطب الأولي في تطوير البشر في تطوير البشر هي الاستعمالات المجازية وعناصر الاستعارة من الطبيعة، حينما كان ينقص البشر التفكير المجرَّد. ومن هذا المنطلق اعتقد (مولر) أنَّ الشمس كانت المصدر الرئيسي لكلِّ هذهِ الأساليب التعبيرية في مجالات الاستعارة والمجاز التي سيطرت على لغة التخاطب في عهود الإنسان الغابرة، لا بل شكَّلت بنظرة المصدر الرئيسي في التفكير الأسطوري. في حين اعتقد (كوهن) أنَّ الزوابع الرعدية وما يُصاحبها من برقٍ ورعد هي أهم عناصر الأساطير[٤٤].

لقد اهتم العرب قديماً في أسطورية الظواهر الطبيعية، وأهمها ظاهرة البَّرق وشعائر إنزال المطر وظاهرة قوس قزح وغيرها. كما قدَّسوا الكواكب السَّماوية وأبرزها الشمس والقمر والزهرة والثريا التي حاكوا حولها الأساطير، منها أسطورة الغميصاء، كما اعتقدوا في أسطورية الجبل وقدسية الهلال. إنَّ تصوراتهم هذهِ عكست إلى حدٍّ ما طبيعة واقعهم الاجتماعي وقتئذٍ. ومع أنَّ الخيال لعب دوراً أساسياً في هذهِ المُعتقدات الأسطورية فإنَّ القوى والخوارق ارتبطت بهذهِ الظواهر الطبيعية، وهذا ظاهرة في تغيرات القوة التي تُجسِّد في الخصائص النوعية والغريبة للكون. كما ظهرت في التناقض بين البرِّ والبحر والسهول والجبال أو بين الجهات الأربعة واختلاف وجوه القمر[٤٥].

كما ارتبطت بعبادة الظواهر الطبيعة والأساطير الحيوانية والنباتات وعلاقة ذلك بالأرض، فقد تصورت الكثير من المُجتمعات البدائية الحيوانات في هيئاتٍ بشرية في الأساطير، تتصرف وتتحدث كما لو كانت بشراً، كما ظهرت بعض الأساطير التي لها علاقة بعبادة وتقديس الأشجار، وفي ملحمة جلجامش

السومرية هناك إشارة إلى (نبات الخلد) رمزاً على القدسية الإلهية ومحاولة الإنسان التغلب على عقود الموت بغية كسب الخلود، ويُلحظ على الكثير من القصور والمعابد في الحضارات القديمة تماثيل وصور لكائناتٍ أو حيواناتٍ خرافية أو مركبة، لقد ارتبط ذلك بنظر بعضهم بالمُعتقدات الدينيَّة (الطَّوطمية) وما يُصاحبها من عبادةٍ وتقديس للحيوان أو النبات، وهناك مَن يُشير إلى أنَّ تحول الإنسان من نمط الصيد إلى نمط الزراعة قد رافقه تطورٌ أسطوري، وهنا حلَّت الآلهة التي ترمز إلى العصر الزراعي محلَّ الآلهة الحيوانية. ومع هذا قد بقيت ظواهر الطبيعية رغم تحولاتها الفكرية والأسطورية عِبرَ الزمن مدار بحثٍ وتأمل حتَّى في عصرنا الراهن[٤٦].

### ب. الأسطورة والفكرة التاريخية

«هذهِ المدرسة تربط الأسطورة بوقائع تاريخية جارية ليست من نتاج الخيال المُجرَّد، إذ عدوا الأسطورة بمثابة تجارب وخبرات إنسانية مباشرة، بل أرجعوها إلى أزمانٍ سحيقة سابقة على التاريخ المدوَّن، لكنها بقيت متداولة عِبرَ الأجيال بالاعتماد على الذاكرة التي عُدَّت لاحقاً مصدراً من مصادر التاريخ»[٤٧].

وقد أرجع يوهيميروس Euhemerus في كتابة التاريخ المقدس بعض الآلهة والوثنية اليونانية إلى أصولٍ بشرية، ومنها (زوس) كبير آلهة اليونان. وهذا ما جعل (هربرت سبنسر) يُطلق نظريته القائلة بأنَّ عبادة السَّلف أصل كلِّ دين، إلَّا أنَّ هؤلاء واجهوا المطالبة بالبراهين التاريخية القاطعة لإثبات صحَّة طروحاتهم هذهِ، كما حاول بعضهم دمج السياسة بالأسطورة والدين بوصفها خطوة للتواصل إلى دمج الأسطورة بالتاريخ. ولكن يلحظ أنَّ بعض المفكِّرين قد أقروا بوجود أساطير تتضمَّن في طيَّاتها شيئاً من التاريخ. وقد أطلق مايكل كرانت Michael Grant على هذا النوع من الأساطير بـ(شبيه التاريخ)، أمَّا برونسيلاف مالينوفسكي Bronisław Kasper Malinowski (١٨٨٤-١٩٤٢م) فقد اعتقد أنَّ الأساطير تمثل سجلاً تاريخياً مضبوطاً للأحداث الجارية عِبرَ ماضي الجماعات والشعوب. كما وجد بعضهم في التاريخ – الأسطورة، بمثابة مزيج بين التاريخ والخرافة أو تتضمَّن عناصر تاريخية ومجموعة خوارق تأخذ إطار الحكاية، ولتعلُّق هذهِ الحكاية بمكانٍ محدَّد واقعي على وجه التقريب أشار (يونغ) بأنَّ الأساطير تمثل (تاريخا قبلياً) تتوارثه الأجيال المتعاقبة عن طريق التلقين ونتاجات الأساطير بدون أنْ تتخذ أشكالاً ونماذج محددة، بل تنطوي في الأعمِّ الأغلب على عناصر يمتزج فيها الخيال بالخرافة[٤٨].

وهناك أساطير عديدة ظهر فيها الجمع بين (التاريخ – الأسطورة)، ومنها: قصة (الطوفان) البابلية، و (ملحمة جلجامش) السومرية. وفي تراث الإغريق نجد أساطير حُكيت حول (حرب طروادة)، وأساطير أخرى تمثَّلت بأسطورة (أوديب) و (سيزيف) و (أوليس) وغيرها. وفي التراث العربي تجسَّدت الأساطير العربية في علاقة العرب الاجتماعية وشعائرهم وطقوسهم واحتفالياتهم، ومنها أساطير العرب البائدة (عاد وثمود، وطسم وجديس، وجرهم والعمالقة). وأساطير وقصص أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم، منها: (إرم ذات العماد) و (سد مأرب). كما كانت للحروب عند العرب أساطير أيضاً، مثل: (داحس والغبراء) و (البسوس) و (ذي قار) و (عام الفيل). إضافةً إلى الأساطير التي نُسجت حول العِمران الحضري،

ومنهـا الأسـاطير التي قيلت بشـأن قصـور غمدان والخورنـق والسَّـدير، كـما ارتبطـت الأسـطورة والخـوارق والخرافة هنا بأشـخاصٍ تاريخيين كعنترة وابن ذي يزن اللذين ورد ذكرهما سـابقاً. إلى جانب أسـاطير حيكت حول شـخصية (رولان) الفرنسية والظاهـر بيـبرس المملوكيـة وهانيبـال الفينيقيـة وغيرهـا من الشـخصيات التاريخيـة. وغالباً ما تميل غالبيـة القَصَـص والحكايـات الأسـطورية المُرتبطة بشـخصياتٍ إنسانية إلى التشـديد على أصل الأشياء أو نشأتها، أكثر من تلك التي تفتقر إلى هذا النَّمط من الشخصيات. وفي حالة تجريد القَصَص الأسطورية من مضامينها الغيبية والعقدية، فإنَّها تتحول إلى مجرد روايات أبطالها من البشر العاديين[٤٩].

### ج. الأسطورة التعليلية

نشـأت الأسـاطير لتقديـم الأسـباب الكامنـة وراء كثـيرٍ مـن الظواهر التي يلاحظها الإنسـان من خـلال تعاملهِ مع الواقع في حياتـهِ اليومية، وهذا ما يُعـرف بـ(الأتيولوجيـا) A pourquoi story أو علـم دراسـة الأسـباب. ويـرى بعـض الباحثين في الأسـطورة التعليليـة بدايـات العِلـم الأولى قبل الفلسفة، ومع هذا فإنَّ هذا النوع من الأساطير لم تجد طريقهـا إلى الوجود إلَّا بعـد أنْ ظهرت فكرة وجود كائنـاتٍ روحيـة خفيـة، في مقابـل ما هـو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد وانفجار البراكين وغيرها. وقـد مهَّد ذلك لظهور (السـحر) المرتبط بطائفةٍ من السَّـحرة والكُهَّان، الذين مارسوا في مجتمعاتهم دور الشـفيع أو الوسـيط، أو احتكار التعليلات لكلِّ ما يـراه الإنسـان من أشـياءٍ مثيرة أو مفزعـة في محيطهِ. ثـمَّ الادعاء في امتلاك أسرار الكون، وهكذا شـارك السـحر في هذهِ المهمة قبل ارتباطهِ بالدين، إذ كانت الشـعائر الدينيَّـة والسـحرية تُمـارس معـاً، يرافقها طقوس ومراسـيم كالصلـوات والتعازيم وغيرها، لكـن التحـرر العلمـي من هـذهِ الصيغة لم يـأتِ إلَّا متأخـراً، في الوقت الـذي كان فيه التفكير الشـعبي يحـاول جاهداً تقديـم تعليلاتهِ لظواهـر الحياة بعيداً عن سـطوة الكُهَّان أو السَّحرة؛ لذا فقد عدَّ بعضهم الكهانـة مـن إحـدى ممارسـات الفكر الأسـطوري الأكثر بداءةً واسـتمراراً، أمَّا الـذي يربط بينهما فهو محاولة كشف الغيب والتنبؤ. لقد لعب الكُهَّان أدواراً أساسـية في عصرهـم، منهـا الحكـم في الخصومات والتطبيب وتفسير الرؤى والتنبؤ بالمستقبل[٥٠].

وهناك أسـاطير كثيرة أشارت إلى هذا النوع من التعليل للظواهر، فقـد اعتقدت كثير من القبائل أنَّ الأرض تحملهـا كائنـاتٍ بشـكل حيوانـات أو هيئةٍ بشريـة، وأنَّ هذهِ الكائنات تُنبِّه البشر إلى دورها هذا عن طريق اهتزاز الأرض ممَّا ينشـأ عنه الزلازل، كما سـاد الاعتقـاد في أوسـاط بعض قبائـل أفريقيا مثل (باشـوانا) و (باسـوتو) بوجـود طيـورٍ أسـطورية، تُسـبِّب الرعد والعواصف المطرية الشـديدة. ولدى قبيلة (داكوتـا) من الهنود الحمـر الأمريكيين اعتقادٌ بـأنَّ الرعد سـببه طـير هائل في أعـالي السـماء. وإلى وقـتٍ متأخـر كان الاعتقاد السـائد بين النـاس بأنَّ الحـوت يبتلـع القمر مسـبِّباً الكسـوف، وهكذا كما يلحظ جاء تعامل هذهِ القبائل وغيرها من الجماعات البشرية المتعددة، بتفكيرها الأسـطوري الغيبي بهذهِ الظواهر، من زاوية كونها كائناتٍ تنطوي على الحياة ارتبـاط حركاتها بقوى غيبية عاقلة، ممَّـا كان له أبلغ الأثر بوقائع الإنسـان البدائي الاجتماعية والنفسـية والحضارية[٥١]، والأساطير بأجمعها.

لقد اسـتهدف (فريـزر) من دراسـتهِ هذه إيجاد تطويـر تسلسـلي يبتدئ بعـصر السـحر، ويمتد إلى فترة الدين لينتهي إلى عصر العِلم[٥٢].

## الخاتمة

عِبرَ سير الكتابة في مشروع بحثنا هذا تمَّ التوصل إلى مجموعةٍ من النقاط الرئيسة مثَّلت فحوى العنوان ومباحثه الرئيسة، وهذهِ النقاط هي:

١. ارتبط الإنسان ذي التفكير الفلسفي بالتاريخ، وفي كافَّة مراحل الوعي المعرفي والتي بدأت من وعي الإنسان بذاتهِ وبطبيعة أفعالهِ التي لا تقتصر على ما يستجد بها في حاضرهِ، بل تشمل ما حدث لها في الماضي.

٢. إنَّ التاريخ يمثل معرفة ملازمة لفكر الإنسان، وقد مرَّت هذهِ الصلة الوثيقة بين الإنسان والتاريخ بمراحل تطورت خلالها تلك المعرفة مع الطبيعة الإنسانية، وبلغ فيها التاريخ لمستوى العِلم، وتطور معه الفكر التاريخي ليلتحق بالفكر الفلسفي ساعياً لحلِّ مشاكل التاريخ المختلفة عِبرَ استعمال منطق البحث العلمي الجديد.

٣. إنَّ الجدل المُثار حول علمية التاريخ دفعت الباحثين في التاريخ والمختصين في فلسفتهِ إلى السعي والبحث عن كلِّ ما يجعله علماً يلتحق بركاب العلوم المختلفة والتي اتبعت المنهج العلمي الجديد، فنظر علماء أثبتوا علمية التاريخ لعلَّ أشهرهم (إدوارد كار).

٤. إنَّ الأسطورة انسجمت مع الطقوس التي كان يمارسها الناس في ذلك الوقت، وشكَّلت عِبرَ ملاحمها الأدبية مصدراً مهماً من مصادر دراسة التاريخ القديم في جانبها الأدبي المروي، بينما كانت الطقوس تُشكِّل الجانب العملي. فالإنسان لم يكن يُدرك المنهج العلمي، بل كان يُدرك أحداث مقدسة ترتبط بالآلهة، وهي الأساطير.

٥. كان للظواهر الطبيعية منذ القِدَم الأثر الكبير في بناء مخيلة الإنسان ومنذ عهدٍ بعيد، ومن هذا الأثر ذهب الإنسان إلى تقديس تلك الظواهر الطبيعية ومحاولته تأليهها ومنحها صفة المقدس، وترتَّب كذلك تأليه الأساطير الوثنية التي أنتجتها الحضارات القديمة.

٦. ارتبطت الأسطورة بوقائع تاريخية عاشها الإنسان في ذلك الحين، وهي تجارب وخبرات إنسانية مباشرة، بل أرجعوها إلى أزمانٍ سحيقة سابقة على التاريخ المدوَّن، مثَّلت حياةً واقعية عاشها المُجتمع بكلِّ تطوراتهِ المرحلية.

## الهوامش
## (Endnotes)

(١) يُنظر: الملَّاح، هاشم يحيى وآخرون، **دراسات في فلسفة التاريخ**، ط١، (الموصل: جامعة الموصل، ١٩٨٨م)، ص١٥.

(٢) يُنظر: كولنجود، دوبين جورج، **فكرة التاريخ**، ترجمة: محمد بكير خليل، (القاهرة: الهيأة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٢م)، ص٣١؛ العروي، عبد الله، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، ط٦، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م)، ص٩.

(٣) يُنظر: التيمومي، الهادي، **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم**، ط١، (تونس: دار محمد علي للنشر، ٢٠٠٣م)، ص١١.

(٤) يُنظر: التيمومي، الهادي، **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم**، ص١١؛ خليل، أحمد خليل، **معجم المصطلحات الفلسفية**، (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥م)، ص٣٤.

(٥) يُنظر: طحطح، خالد فؤاد، **في فلسفة التاريخ**، ط١، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٩م)، ص١٧.

(٦) يُنظر: النبراوي، فتحية عبد الفتاح، **علم التاريخ ودراسته في مناهج البحث**، ط٢، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٨٦م)، ص٢١.

(٧) أحمد، قيس هادي، **فلسفة الحضارة عند ابن خلدون واشبنجلر**، مجلَّة المورد، مج٣٧، ع٢، ٢٠١٠م، ص١٧.

(٨) يُنظر: النجَّار، جميل موسى، **فلسفة التاريخ.. مباحث نظرية**، ط١، (بغداد: المكتبة العصرية، ٢٠٠٧م)، ص٤٩.

(٩) يُنظر: طحطح، **في فلسفة التاريخ**، ص١٧.

(10) *L'Avenir de la Science, Pensées de 1848*, 1890. in English translation: *The Future of Science*. London: Chapman & Hall, 1891.

(١١) يُنظر: كار، إدوارد، **ما هو التاريخ**، ترجمة: ماهر كيالي وبيار عقل، ط١، (بيروت: ١٩٧٦م)، ص٥٦.

(١٢) طحطح، **في فلسفة التاريخ**، ص٢٥.

(13) **The French Revolution: A History.** was written by the Scottish essayist, philosopher, and historian Thomas Carlyle. The three-volume work, first published in 1837 (with a revised edition in print by 1857), charts the course of the French Revolution from 1789 to the height of the Reign of Terror (1793–94) and culminates in 1795. A massive undertaking which draws together a wide variety of sources, Carlyle›s history—despite the unusual style in which it is written—is considered to be an authoritative account of the early course of the Revolution.

(١٤) كار، **ما هو التاريخ**، ص٦١.

(١٥) يُنظر: الملَّاح، **دراسات في فلسفة التاريخ**، ص١٩.

(١٦) يُنظر: أوسينوبوس، لانجلو وآخرون، **النقد التاريخي**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط٤، (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٨١م)، ص٣٠.

(١٧) يُنظر: كار، مرجع سابق، ص٦٢.

(١٨) يُنظر: صبحي، أحمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٤م)، ص٤٠.

(١٩) الملَّاح، **دراسات في فلسفة التاريخ**، ص٢٠.

(٢٠) كولنجود، **فكرة التاريخ**، ص١٩.

(٢١) اشبنغلر، أسوالد، **تدهور الحضارة الغربية**، ترجمة: أحمد الشيباني، (بيروت: مكتبة دار الحياة، د.ت.)، ج١، ص١٨.

(٢٢) يُنظر: الملَّاح، مرجع سابق، ص٢٤.

(٢٣) يُنظر: لخضيري، زينب، **فلسفة التاريخ عند ابن خلدون**، ط٢، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر،

١٩٨٥م)، ص٦٤.

(٢٤) الملَّاح، مرجع سابق، ص٢٤.

(٢٥) عبد، علاء، **مفهوم فلسفة التاريخ**، مجلَّة الوعي المعاصر، ع٣، ٢٠٠٠م، ص٨٨.

(٢٦) روزنثال، م.، **الموسوعة الفلسفية**، ص٣٣٩. يُنظر أيضاً: بدوي، عبد الرحمن، **موسوعة الفلسفة**، (قم: ١٤٢٧هـ)، ج٢، ص١٥٨.

(٢٧) يُنظر: كار، **ما هو التاريخ**، ص١٩.

(٢٨) النشَّار، مصطفى، **فلسفة التاريخ.. معناها ونشأتها وأهم أهدافها**، ط١، (عمَّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠١٢م)، ص٣٣.

(٢٩) يُنظر: هورس، جوزيف، **قيمة التاريخ**، ترجمة: نسيم نصر، (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٧٤م)، ص٣٣.

(٣٠) النشَّار، مصطفى، **ما بعد العولمة.. قراءة في سبيل التفاعل الحضاري**، (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م)، ص٣٥.

(٣١) الملَّاح، مرجع سابق، ص٧٢.

(٣٢) يُنظر: الماجدي، خزعل، **علم الأديان**، ط١، (الرباط: مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٦م)، ص٣٥.

(٣٣) عبد الهادي، عبد الرحمن، **التاريخ والأسطورة**، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٤م)، ص٤٣.

(٣٤) قاسم، يزبك، **التاريخ ومنهج البحث التاريخي**، (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٠م)، ص٢٣.

(٣٥) الدليمي، حمزة حامد، **فلسفة التاريخ والحضارة**، (واسط: دار الطيف للطباعة، ٢٠٠٤م)، ص١١٩.

(٣٦) يُنظر: عبد الهادي، عبد الرحمن، **التاريخ والأسطورة**، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٤م)، ص٤٧.

(٣٧) باروخ، سبينوزا، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، ترجمة: حسن حنفي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر، ١٩٧١م)، ص١٣؛ إرنست، كاسير، **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية**، ترجمة: إحسان عباس، (بيروت: دار الأندلس، ١٩٦١م)، ص٩٥.

(٣٨) يُنظر: الملَّاح، مرجع سابق، ص٦٧.

(٣٩) الملَّاح، مرجع سابق، ص٧١.

(٤٠) يُنظر: إبراهيم، نبيلة، **قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية**، (بيروت: دار العودة، ١٩٧٤م)، ص٦٦.

(٤١) يُنظر: الملَّاح، مرجع سابق، ص٧٥.

(٤٢) المرجع نفسه، ص٦.

(٤٣) عبد الهادي، **التاريخ والأسطورة**، ص٤٧.

(٤٤) صبحي، **في فلسفة التاريخ**، ص٤٥.

(٤٥) الملَّاح، مرجع سابق، ص٧٨.

(٤٦) النوري، قيس، **الأساطير وعلم الأجناس**، (الموصل: مؤسَّسة دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، ١٩٨٠م)، ص٣٨.

(٤٧) السوَّاح، فراس، **مغامرة العقل الأولى.. دراسة في الأسطورة**، ط٢، (بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٩٠م)، ص١٤.

(٤٨) يُنظر: النوري، **الأساطير وعلم الأجناس**، ص١٩.

(٤٩) الملَّاح، مرجع سابق، ص٧٧.

(٥٠) زكي، احمد كمال، **الأساطير.. دراسة حضارية مقارنة**، ط٢، (بيروت: دار العودة، ١٩٧٩م)، ص٧٧.

(٥١) يُنظر: الملَّاح، مرجع سابق، ص٧٨.

(٥٢) المرجع نفسه، ص٧٩.

A German folk tale, Hansel and Gretel; illustration, by: Arthur Rackham, 1909

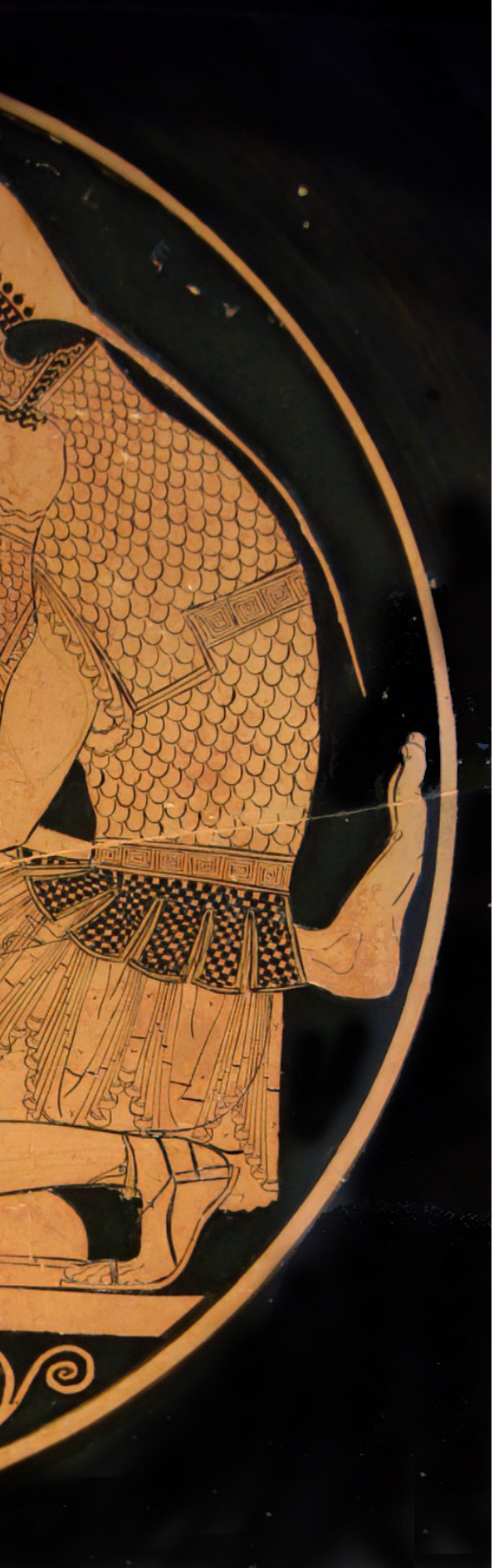

Achilles tending the wounded Patroclus

Ballads of bravery (1877) part of Arthurian mythology

This panel by: Bartolomeo di Giovanni, relates the second half of the Metamorphoses. In the upper left, Jupiter emerges from clouds to order Mercury

Epic of Gilgamesh

Children's Games by Pieter Bruegel the Elder, 1560; there are five boys playing a game of buck buck in the lower right-hand corner of the painting

Netherlandish Proverbs, by: Pieter Bruegel the Elder, 1559

# The Dialectic of the Mythological Interpretation of History

Asst. Lect. Dr. Hamid Abdul Hamza Muhammad Ali
University of Babylon / College of Education for the Humanities

## Abstract:

The positional mental philosophy presents laws that are in harmony with the human mind and are still searching for approaches that have been researched in a different way. Since every actor, especially every living being, can be seen under two relationships - staticity and movement - that is, under certain conditions or during work, it is clear that all considerations place themselves under one of these relationships, and there is no escape from leaving them in order to obtain knowledge in its true form.

The positive philosophy of Kunt went to the search for the independence of the curriculum in the research, and this allowed him to talk about a systematic approach that makes him a true tribal in the curriculum and to draw from him his scientific perceptions that he took as a way for him in his philosophy.

He wanted the sociology curriculum to be based on common grounds with different natural sciences approaches in observing, experimenting, comparing, or extrapolating, then this trend evolved to be the positive factor for Western researchers in the humanities in the nineteenth century, despite the emergence of other philosophies other in the direction The result reached by it is the law of the three phases in the development of humanity, and it went to the development of the individual and his capabilities, societies, and the rest of the other sciences.

Keywords: scientific method, positivism, The laws of science.